



درس عنى كتاب المدارس في المدارس

أيها السادة:

إن تاريخ كل أمة سواء كان مجيداً أو غير مجيد لا يخلو مستقبه من ارتباط بماضيه لا من حيث التشابه بين طرفيه بل من حيث النتائج التي ترتب عنها فحصة الأمم أحياناً وتغير مجرى الحياة الاجتماعية بأن تسرع بخطا الشعوب إلى مراقبي الصعود.

ومعناه أنه إذا كان ماضي الأمة عظيماً محترماً في التاريخ تحرص عنى أن يكون أعظم احتراماً في حاضرها أو على تسترد ذلك الاحترام إذا فقدت شيئاً منه. وإذا كان ماضيها شيئاً غير محترم في التاريخ تدأب على التخلص منه وتطلب لنفسها حاضراً أسعد منه.

فالتيجة واحدة في الحالتين ولكن لمن؟ ومن يحصل عنى مثل هذه النتيجة من الأمم؟

تحصل عليه أمة تعلم أن لها تاريخاً فتدرسه وماضياً تبحث فيه وترجع إليه لاسيما إذا كان تاريخاً مجيداً له آثار معروفة في الوجود وأثر محقق في الاجتماع. والأمة كالفرد فخورة بالماضي الجميل إذا تمثل لها نفع فيها من روحه فبلاها نشاطها ودفعها إلى الأمام أشواطاً.

وإن أمة لا تعرف تاريخها أحر بها أن يتكر لها الزمان وتزدرى بها الشعوب لجهنها بماضي التاريخ وتكرها الإنسانية وتكرها السماء والأرض.

إن المنارة الإسلامية التي رفع منارها أسلافنا الطاهرون وغيرت شكل الأرض ومجرى الاجتماع كان لمدينتكم هذه حظ وفير منها ولا سيما في التوفر على إنشاء معاهد العلم ودور التربية والتهديب.

هذا أيها السادة ما دعاني لأن أقف بينكم خطيباً أفتح صحيفة ماضي التاريخ فيما يتعلق بأسلافكم الغابرين ومدينتكم الفحاء وفيها ذكرى لنداكرين وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

إن هذه الذكرى ما ترونها في هذا الكتاب الضخم المشتمل على ألف وثلاثمائة وستين صفحة وهو كتاب (الدارس في المدارس) تأليف العلامة المؤرخ محمد بن محي الدين النعيمي وهو خاص بما أنشئ من معاهد العلم والمساجد ودور العجزة (التكايا) في دمشق وقد بنى عدد ذلك مائتين وبضعاً وثمانين لو وزعت المدارس منها على السنين منذ إنشاء أول مدرسة في القرن الخامس إلى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى عهد المؤلف في أواخر القرن التاسع لأصاب دمشق كل سنتين مدرسة تنشأ أو دار للعجزة والمرضى تشاد هذا فضلاً عما أنشئ من المدارس بعد ذلك التاريخ ولم يدركه المؤلف المذكور وهذا فهرست الكتاب تنو عنكم بعضاً من أسماء المدارس التي جاءت فيه ولا أطيل خوفاً من ضيق الوقت.

أنا تواريخ إنشاء هذه المدارس بالضبط والأوقاف التي حبت على الطلبة فيها والعناء الذين نبغوا منها ودرسوا فيها كل هذا مذكور في صلب الكتاب وليس في الوقت متسع

لتلاوته عنكم كما ترون من حجم الكتاب وحكم أن من درسوا في هذه المدارس وتولوا رياستها أو نبغوا فيها من علماء الشريعة مثل الحافظ الذهبي صاحب التاريخ المشهور والإمام ابن تيمية صاحب التآليف الكثيرة وقاضي القضاة صدر الدين الأزرق صاحب الجامع الصغير والعماد ابن كثير والنووي وابن الصلاح والحافظ جمال الدين المزري وأشباههم من العلماء الكبار ومن علماء الطب مثل ابن أبي أصيبعة صاحب تاريخ الأطباء ومهذب الدين بن الحاجب ونجم الدين النبودي وموفق الدين بن المطران ومهذب الدين الداخواز وعماد الدين الديسري وأضرابهم.

ومن علماء العقليات والرياضيات والموسيقى مثل محمد بن أبي الحكم الباهني وعز الدين السويدي وأبي الفضل الحارثي المهندس الذي كان باب البيمارستان النوري القائم إلى اليوم من عمل يده وأضرابهم.

وهذا أنا أقرأ لكم مثلاً واحداً من ترجمة هؤلاء الرجال فاسمعوا ما قال تاريخ المدارس هذا في ترجمة أفضل الدين بن أبي الحكم نقلاً عن الصفدي:

(محمد بن عبد الله بن المظفر بن عبد الله الباهني) هو أفضل الدين أبو أحمد بن أبي الحكم من الحكماء المشهورين كان طبيباً حاذقاً وله يد طولى في الهندسة والنجوم (أي علم الفلك) وله في سائر الآلات المطربة يد عمالة وعمل أورغناً وبالع في إتقانه وقرأ على والده وغيره في الطب كان في دولة نور الدين بن الشهيد ولما عمر البيمارستان والمستشفى النوري بدمشق جعل أمر الطب إليه إلى آخر ما قال:

هؤلاء الرجال الذين ذكرهم لكم وهذا الفضل الكبير منهم وعدد كثير منهم من أهل الشهرة بالعلم والفضل ودرسوا في هذه المدارس أو تخرجوا على رؤسائها ومشايخها ثم

ملأوا المكتبة العربية بالمؤلفات النافعة في كل فن ومن راجع منكم كتاب الكواكب لابن عروة الحنبلي في أكثر من مائة مجلد وتاريخ الحافظ ابن عساكر في أكثر من عشرين مجلداً وهما موجودان اليوم في المكتبة العمومية في مدرسة الملك الظاهر بدمشق وقاس عنيهما ما ألفه علماء تلك القرون الأفاضل وما قبلها في علوم الشريعة والأدب واللغة والتاريخ والتراجم والفنك والطب والرياضيات كالمهندسة والحساب وغير ذلك من العلوم عظم مقدار ما لهذه المدارس ومؤسسيها من الفضل على الأمة وما للتابعين فيها من الأثر العظيم في الوجود بما سهره من الليالي الطوال في الحرير والتحير وما عانوه من النصب في وضع كتب العلم لإفادة الناس حتى ملأوا بها المكاتب ونشروا العلم: وما قولكم في أن عالماً واحداً من علماء الطب وهو موفق الدين بن المطران المتوفى سنة سبع وثمانين وخمسة تترك في مكتبته عشرة آلاف مجلد في الطب والعلوم الحكيمة كما ذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة الموصل إليه.

وملا يظن بعضكم أن هذه المدارس كانت مدارس دينية فقط وأن أكثر علمائها وطبقتها من طلبة العلوم الشرعية وآلاتها كلاً فإن فيها مدارس لغير العلوم الشرعية كالطب مثلاً ومن هذه المدارس المدرسة الدخوازية والديسرية والنبودية كما سترون ذلك في ما يأتي من الكلام إن شاء الله.

ولقد أخبرنا التاريخ أن معاهد العلم كانت مشاعة بين طلابه من كل فن وأن الطبيب أو الفلكي مثلاً كان يلقي دروسه في أي مدرسة كانت من مدارس العلم له فيها وظيفة بل في الجوامع والمساجد أيضاً لأنها كانت قبل أن توجد المدارس على شكلها المعهود أي قبل

القرن الرابع أشبه بمدارس العلم بل هي المدارس بعينها وما زالت كذلك معاهدنا لنعلم والابادة معاً إلى اليوم كما تعلمون.

وأذكر لكم مثلاً واحداً على أن المدارس كانت مشاعة لطلاب كل علم ما نقله ابن أبي أصيبعة في ترجمة رفيع الدين الجيلي قال:

وكان مقيماً في دمشق وهو فقيه في المدرسة العذراوية داخل باب النصر وله مجلس لثلاثين عنده في أنواع العلوم والطب وقرأت عليه شيئاً من العلوم الحكيمة.

واعلموا أيها السادة أن كثيراً من علماء الشريعة مثل الجيلي جمعوا بين العلوم الشرعية والعقلية والطب والفلك والرياضيات وكلهم من خريجي هذه المدارس بالضرورة ومن جاء ذكرهم من هؤلاء في هذا التاريخ واذكره مثلاً للباقيين أحمد بن الحسين الدمشقي وإليكم ما

جاء في ترجمته من هذا الكتاب نقلاً عن ابن كثير:

(الجمال الحق أحمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي) اشتغل على مذهب الشافعي وبرع فيه وأفق وأعاد وكان فاضلاً في الطب وقد ولي مشيخة الدخوازية (مدرسة طبية) لتقدمه في صناعة الطب على غيره وعاد المرضي بالبيمارستان النوري على قاعدة الأطباء وكان مدرساً بالشافعية بالمدرسة القروخشاهية ومعيداً بعدة مدارس إلى آخر ما قال:

هذا يدلكم على أن العلوم كانت مشاعة بين العلماء وأن العالم بالشرع قد يكون عالماً بعلوم أخرى من العلوم النظرية والعملية كالفلسفة والطب والموسيقى والرياضيات وغيرها من العلوم التي قامت على دعائمها المدنية الإسلامية وكانت الحلقة الوسطى بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة حتى اعترف بفضلها على التمدن الغربي كثير من علماء

التاريخ والاجتماع في أوربا كدربي ومونتسكيو لوبون وأفردوا للمدنية الإسلامية كتباً خاصة أتوا فيها على ذكر ما تركته هذه الحضارة من آثار الترقى والعلم التي يجهنها أهله لهذا العهد بالأسف والعار.

نحن الآن أيها السادة بصدد علماء دمشق في القرون الوسطى وإنما هم حلقة من سلسلة تلك المدنية الإسلامية التي أختى عليها الزمان وإذا صحتم لي فأني أختتم كلامي بنبرة من تاريخ تلك السلسلة بعد استيفاء الكلام على كتاب المدارس هذا إن شاء الله.

علمنا مما سبق أن عدد المدارس ودور العجزة التي أنشئت في دمشق ولكن من الذي أنشأ هذه المدارس ورفع بنائها وأدر الخيرات عليها وأنفق على طلابها من ماله أهى الحكومة أو الأفراد أو الجماعات؟

ينبغي بنا الضعف أن صرنا كالأطفال نطلب كل شيء من الحكومة كما يطلب الطفل كل شيء من والديه أما أسلافنا فلم يكونوا كذلك بل كانوا استقلاليين أكثر منهم اتكاليين يعرفون قيمة الاعتماد على النفس فكان الفرد الواحد يقوم بما تقوم به الجماعة أو يطلب من الحكومة اليوم.

ولهذا فإن كل ما جاء ذكره في هذا الكتاب من المساجد والتكايا والمدارس إنما أنشأه الأفراد وقام بمال أهل السخاء من أسلافكم الطيبين شخص الخير وإرادة نشر العلم وخدمة الوطن والدين.

لم يختص بهذا العمل الجليل والشرف الرفيع الملوك والأمراء وذوو السلطة كما قد يتوهم بعضهم كلا بل كان الأفراد من كل الطبقات من أهل اليسار يتسابقون إلى إقامة المعاهد العلمية حسبة لله وحباً بعمل الخير واسبقاءً لذكر الصالح في الوجود.

فالتجار والعلماء والسيدات هم الذين أسسوا هذه المدارس كل مدرسة يؤسسها شخص بمفرده ويحبس عليها من ملكه ما يكفي ريعها بل أقول لكم والخجل يكاد يمنعني من التكلم والحزن يوشك أن يعقد لساني أن العبدان_عبدان أسلافكم أيها السادة_شيدوا بأموالهم بعض هذه المدارس أيها السادة ورفعوا منار العلم للفضيلة كم ترفع العبدان إلى منزلة السادة في حين تنحط السادة إلى منزلة العبدان.

إن العبدان كانوا أرفع نفوساً وأسخى كفوفاً منا الآن يا للخجل والخسران.
إن الكلام وحده لا يغني عن البرهان وإنكم تنتظرون مني الدليل بعد هذا البيان وإليكم أمثلة من عمل العلماء. التجار. والسيدات. والعبدان.

قال المؤرخ في فصل عقده لمدارس الطب:

(المدرسة الطبية الدخوازية الدخوارية) المدرسة الدخوازية بالصاغة الحقيقة بقرب الخضراء قبلي الجامع الأموي أنشأها مهذب الدين عبد المنعم بن علي بن حامد المعروف بالداخوز في سنة إحدى وعشرين وستمائة بالصاغة الحقيقة كما تقدم وأول من درس فيها واقفها ثم من بعده بدر الدين محمد بن قاضي بعلبك ثم عماد الدين الدينوري وهو بها الآن.

(المدرسة الدينيسرية) غربي الينارستان النوري والصلاحية بآخر الطريق من قبلة قال الذهبي في العبر في أخبار سنة ست وثمانين وستمائة:

عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عباس الربيعي الرئيس الطبيب ولبد بدينر سنة ست وستمع بمصر من علي بن مختار وجماعة وتفقه للشافعي وصحب البهاء الزهير وتأدب به وصنف إلى أن قال نقلاً عن الأسدي: العماد محمد بن عباس الحكيم البارع في الطب صاحب المدرسة للأطباء بالقرب من بيمارستان نور الدين الشهيد الخ.

(المدرسة البوذية) البوذية النجبية مدرسة خارج البلد ملاصقة لبستان الفلك المشيري
 أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن البوذي في سنة أربع وستين وستمائة: إلى أن قال نقلاً
 عن ابن أبي أصيبعة. كان علامة وقته وأفضل أهل زمانه في العلوم الحكيمة الخ.
 هذه أمثلة من عمل العلماء: واسمعوا مثلاً من عمل التجار في سبيل الخير والعلم والمنفعة
 العامة لم يعمل مثله أحد من أغنياء هذا الزمان:

(المدرسة المزلقية) بطريق مقابر باب الصغير الأخذ إلى الصابونية أنشأها تاجر الخاص
 الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن المزلقي ميلاده
 سنة أربع وخمسين وسبعمائة وكان أبوه لبناً أدركه جماعة وهو يباشر منبنة عند جامع
 يلغا فنشأ ولده هذا ودخل في البحر وحكى عن نفسه أن أول سفرة سافر بها كسب فيها
 مائة ألف دينار وثمائنة ألف درهم وانفتحت عليه الدنيا وعمر أملاكاً كثيرة وأنشأ على
 درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقيطرة وجسر يعقوب والنية وعيون التجار وأنفق
 على عمارها ما يزيد على مائة ألف دينار وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية
 الحسن لم يسبق أحد من الملوك والخلفاء إلى مثل ذلك وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب
 الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة الحسنة وعين للنحجرة
 الشريفة على الحال بها أفضل الصلاة وأتم السلام الشمع والزيت في كل عام إلى آخر ما
 قال:

وهذا مثال لتاجر غيره أيضاً: (المدرسة الرواحية) شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي
 ولصيقه شمالي جيرون وغربي الدوينعة وقبلني الحيفية الحنبلية: قال ابن شداد بانيتها زكي
 الدين أبو القاسم المعروف بابن رواحة وقال الذهبي في تاريخه العبر في من مات سنة اثنتين

وعشرين ومستمائة والزكي بن رواحة هبة الله بن محمد الأنصاري التاجر المعدل وأوقف المدرسة بدمشق وأخرى بحلب الخ.

ومن أمثلة عمل النساء: (المدرسة العالمية) العالمية شرقي الرباط الناصري غربي سفح قاسيون تحت جامع الأفرم واقفتها الشيخة الصالحة العالمة النטיפفة بنت الشيخ الناصح الحنبلي المتقدم ذكره في المدرسة التي قبل هذه (وهي المدرسة الشيخة بانيتها أبو عمر الكبير) وكانت فاضلة لما تصانيف وهي التي أرشدت ربعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت الملك صلاح الدين إلى وقف المدرسة صاحبية بقاسيون على الحنابلة الخ.

ومن أمثلة عمل العبدان والطواشية (المدرسة الصارمية) الصارمية داخل بآبي النصر والجانبية قبلي العذرواية بشرق قال القاضي عز الدين بانيتها صارم الدينك أزيك مملوك قايمآز النجيبى ورأيت مرسوماً يعتبتها ما صورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا المكان المبارك إنشاء الطوشي الأجل الصارم الدين جوهر بن عبد الله الحر عقيق الست الكبيرة الجلييلة عصمة الدين عذرى ابنة شاهنشاه رحمها الله تعالى الخ. رأيتم أيها السادة بماذا قامت هذه المدارس وعن وكيف أن الأفراد من أسلافكم كانوا يعنون ما لا يعمله الجماعات منكم اليوم.

إن الأفراد هم الذين ينهضون بالأمم وأن المدنية الإسلامية التي تنوت عليكم حلقة من سلسلتها العظيمة كان للأفراد شأن عظيم في وضع دعائمها وتشيد بنيانها.

تعنون أيها السادة ما كان لترجمة كتب أهل التمدن القديم كاليونان والفرس إلى العربية من الأثر الكبير في تأسيس المدنية الإسلامية في بغداد على عهد الخلفاء العباسيين وقد

يتوهم بعضهم أن الذي عني بترجمة هذه الكتب إنما هم الخلفاء وخدمهم وأخصصهم أمير المؤمنين المؤمنون والحال أن لكثير من الأفراد ورجال الفضل والنبل من الأمة يداً لا تنكر في هذا السبيل.

وهذا يدلكم على أن عمل الأشخاص منفردين لا يقل تأثيراً في الهيئة الاجتماعية عن عملهم مجتمعين.

ولذا فلا أبالغ إذا قلت أن نوابغ الأمة الذين خدموا بذكائهم وعملهم المدنية وشيدوا أركانها الرفيعة إنما قاموا بهذه الخدمة وقامت تلك المدنية بفضل أهل السخاء والجود من محبي العلم والتقدم وأنصار النجاح الذين كانوا يتفقون من مالههم على المترجمين للكتب العنمية إلى اللغة العربية.

ومن هؤلاء الأفاضل الأجواد الذين رصدوا جزءاً كبيراً من أموالهم على المترجمين لكتب العلم في تلك العصور: علي بن عيسى العباسي: ومحمد بن موسى بن شاكر الرياضي الشهير: وعلي بن يحيى الكاتب: وابن المدير الكاتب: وثاوري الأسقف: ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير: وبختيشوع الطيب: ويوحنا بن ماسويه الطيب: والعديد الكثير من أمثالهم المولعين بالتقدم والعلم والذين كان يتفق كل واحد منهم أموالاً طائلة على نقله العنوم إلى اللغة العربية حتى لقد نقل ابن أبي أصيعة عن محمد بن عبد الملك الزيات أنه كان يتفق في الشهر الواحد على المترجمين ألف دينار. قال هذا فضلاً عما كان يتفق الخلفاء من بني العباس لهذا القصد.

إننا والله نتسنى أن تجمع هذه الألف دينار في كل شهر من كل غني من أغنيائنا اليوم لتفوق في سبيل نشر العلم وتربية الناشئة من أبناء الأوطان ولو فعلوا ذلك اليوم لعوضها

أبناءؤهم أضعافاً مضاعفة في الغد. بل لو فعل ذلك أهل كل ولاية عثمانية لأصبحت المملكة العثمانية بعد عشر سنين جنة قطوفها العنم وسياجها القوة والحياة. ولنعد إلى ما كنا بصددہ فنقول:

بمثل هذا البذل عني نقل كتب العنم ونشرها بين الكافة والاستفادة منها ظهر أركان النهضة في الشرق ١ ن ارتفع بهم شأن التمدن الإسلامي وذلك مثل بني موسى بن شاكر المهندسين الرياضيين في عصرهم وبختيشوع وبني سهل وبني ماسويه وبني حنين وبني ثابت بن قررة وبني زهرون وأبي عثمان الدمشقي وابن كرنيب وبجي بن عدي المظقي وأبي الفرج الطيب وأبي الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا وأبي النصر الفارابي والفخر الرازي وابن الشاطر وأضرابهم من العناء الذين ظهوروا في الشرق في عصور متفاوتة إبان الحضارة الإسلامية.

ومثل بني زهر وبجي بن السنينة وأبي القاسم المرحطي إمام الرياضيين والفنكيين في عصره وابن المسح الغرناطي المهندس وسعيد بن عبد ربه وأبي جعفر الترحالي وأبي الوليد ابن رشد وابنيه محمد وأضرابهم ممن ظهوروا كذلك في الغرب.

ومثل ابن الهيثم البصري صاحب التأليف الغزيرة في الرياضيات والفنك والمبشر ابن فاتك وعني بن رضوان وتلميذه أفرائيم بن الزقان والشيخ السديد رئيس الأطباء وشمس الرياسة بن جميع الإسرائياني ورشيد الدين أبي حليقة وأمثالهم ممن ظهوروا في مصر.

كل هؤلاء من عناء الفلسفة والرياضيات والحكمة الطبيعية وغيرها من العلوم ونسبتهم كنسبة واحد في المائة ممن ظهوروا في عصرهم وبعده في الشام وبغداد ومصر وفارس والمغرب والروم أي آسيا الصغر وغيرها من الأمصار ونهضوا بالأمة وأعزوا ذكر المدينة

الإسلامية في الشرف والغرب وإنما وضع لهم الأساس أفراد من الأمة قدروا قدر العنم فشيدوا معاهده وترجموا كتبه وأكرموا أممه فتكون من عمل أولئك وهؤلاء وتعاونهم جيلاً بعد جيل بناء تلك المدنية العظيمة التي فقدناها بعد ولم نستطع اللحاق بأبناء التمدن الحديث لإعراضنا عن العنم وغفلتنا عن تحدي الأمم الراقية وقبض أكفنا عن إمداد معاهد العنوم وإنشاء دورها مع إنا قد يطلب منا الآن ونحن جهاعات فلا نجيب ما كان يعينه الأفراد من أسلافنا من تلقاء أنفسهم وبحض رغبتهم بالعنم والمعارف وجهم للارتقاء فما هذا الفرق العظيم.

وبالجملة أيها السادة إنا أمة ذات ماضي مجيد وتاريخ جميل وقد ترك لنا أسلافنا درساً لا يحويه الزمان ونقشاً في كل زاوية من المشرق ومكان فننسى بنا ضعف النظر أو ضعف القنوب والهمم أو فساد الأخلاق واستحالة الدم إلى أن نتناساه ولا نقرأ صحفه الزاهية التي يدعوننا كل سطر منها إلى التذكر والتفكير والسعي الحثيث إلى الترقى الذي مناطه العنم والعلم يحتاج إلى المال. فالمال الكرم الكرم الانتباه الانتباه وإلا قضى علينا بالدمار وألحق بنا العار وتبرأ منا أسلافنا الطاهرون ولا يكون ذلك إنشاء الله ما دام فينا الكرام الغورون والرجال المفكرون والسلام عليكم.

أغنيأونا

قال لنا منذ مدة أحد أعيان دمشق أنني اضطرت لصاقة أصابني أن أبيع عقارين من عقاراتي أفندري من كان يزيد فيها؟ قلنا لا ندري. قال كان يزيد فيها لا يتصور العقل أن عندهم قوت شهر واحد أناس يلبسون خنق الثياب ولا تعدهم من كبار السوق بل من صغار المرتزقة أما من كان يظن أنهم سيتلقفون ذنك العقارين فلم يساومونا عندها

بفلس واحد لأفهم لا نقد عندهم وربما كان تقدير الناس لأموالهم هم دون الحقيقة بمراحل.

واجتمعوا في المساء بمجلس غاص ن وأربابا التجار فقص علينا أحدهم. أن المزرعة الفلانية التي يراد بيعها في الغوطة قد انتهى ثمنها إلى عشرين ألف ليرة على يد رجل لم يكن يظن أنه يملك معشارها من الثروة حتى قال أنه يدفع قيمتها حوالة على المصرف دفعة واحدة ثم اجتمعت آراء الحضور على أن ثروة دمشق قد زادت في العشر سنين الأخيرة زيادة محدودة بداعي الأموال الطائفة التي بذرتها فيها إدارة السكة الحجازية وهي لا تقل عن مليوني ليرة وإدارة الترمواي الكهربائي الذي أنفق نحو مائتي ألف ليرة وما أعقب قرب المواصلات من ورود السائحين والحاجين إلى دمشق ذاهبين منها وجائين وما نقلته السكك الحديدية من غلات البلاد القاصية فقدر ما حم لته سكة حوران وحدها من الغلات في العام الفائت بشانين ألف طن والطن أربعة قناطير دمشقية وثمنها يناهز المليون ليرة وما نقلته سكة حديد حماة بخمسة وأربعين ألف طن هذا عدا ما نقلته الخطوط الأخرى وحمل على متون الدواب والجمال من الغلات والشرات حتى عبرت بذلك قرى حوران وكانت خراباً ياباً منذ بضعة سنين وغدا الحوراني اليوم ينعب بالنيرات كما ينعب جاره الفلاح المصري بالجنيهات هذا في إقليم واحد من أقاليم بلاد الشام وفلسطين وولاية بيروت وحنب وسورية مقاطعات لا تقل في خصبها وأمرعها عن حوران ولكنها لم تشتهر شهرتها وأصبح أهلها بفضل المواصلات والحركة التجارية الجديدة في سعة من العيش تزيدهم كما زادهم الحكومة أمناً ووفرت لهم مرافق الحياة.

قالوا وهذه النهضة الاقتصادية في دمشق خاصة لأنها قاعدة هذه البلاد والنقطة الوسطى منها وباب الكعبة ومقر الفيلق ومركز الولاية قد استمتع بخيراتها المقاولون والتجارون والحدادون والبناءون والحجارون والجمالون والعملة والتجار وأرباب الفنادق والمطاعم والعربات فتسربت الدراهم والدنانير إلى جيوب أرباب الطبقة الوسطى فمن دونها واغتنى كثيرون وارتاشوا حتى أن كثيرين من بائعي الفول المدمس لا يرضون من الربح في يومهم أقل من ليلة.

كل هذا قالوه وهو صحيح ولكن الواجب علينا أن لا يمر بنا دون أن نتدبر سره الاقتصادي والاجتماعي والسر فيه أن كثيرين من الأعيان اكتفوا بما حازوه من الثروة إرثاً عن آبائهم أو بفضل معهم ولا تقول كيف حازوها والطرق التي منكوها فمنهم من كانت ثروته ثمرة الكدح المشروع من تجارة وزراعة وهم قلائل يعدون على الأصابع. ومنهم من اغتوا بالاتفاق فابتاعوا مثلاً أرضاً أو عقاراً قصت الأحوال بارتفاع أسعاره فأصبح ما ابتاع يساوي عشرة آلاف وعدهم محدود أيضاً ومنهم من أثروا بما كان لهم أو لأجدادهم من النفوذ في الدولة الاستبدادية فكان الفلاحون يأتونهم باكين شاكين طالبين إليهم أن يرفعوا عنهم ظلم الحكومة أو المنتزعين أو عرب البادية ويأخذوا قريتهم حلالاً زلاًلاً وهم يكتفون منهم بالحماية ويدفعون لهم الخمس كل سنة من مجموع ما تنبت الأرض. ومنهم من تيسر لهم أن يحرزوا وقفاً عظيماً لمدرسة أو لمدارس فعمروا أرضه ورباعه فأخصب وعلا ثمنه مع الزمن فاغتنوا هم وأولادهم ومنهم من وسدت إليهم الوظائف فباعوا ذمتهم وفتحوا بطونهم لأكل الرشى وأضاعوا حقوق العباد والدولة حتى جمعوا لهم مقداراً من المال أنشوا به الخوانيت وعمروا الدور واستثمروا المزارع

والدساكر. ومنهم من جرأوا على استحلال الربا أيام كان ابن حوران مثلاً لفقره يضطر في أكثر سنه أن يتعرض القرش بقرشين للبرابين والصيارف قحة وعرامة فجمعوا من رأس مال صغير رأس مال صغير كنزاً كبيراً في برهة وجيزة ومنهم من لم يستكفوا من ظلم الفلاح فأكلوا لحمه وعرقه وعظمه حتى تم لهم والناس في غفلة والحكومة في إخفاء الذ من إغفاء الصبح نائمة على رعاياها إن جمعوا ما جمعوا سحتاً بحتاً وحراماً لا يجوز عقل من عقول البشر ولا شريعة من الشرائع المساوية والأرضية.

هكذا قام أكثر ما نشاهده من الثروات وعلى هذه الأسس قامت أبنية الأمجاد والفتير رائد أصحابها والإمساك طريقهم إلى الجمع. ومن أتاه قرش فصرف بعضه وأحسن استخدام ما جمع لا بد أن يأتي عليه يوم يحوز الثنى وكيف لا ننسب بعض الأغنياء إلى كرازة الأيدي ونحن نراهم لا يسبحون حتى بتعليم أولادهم مع أن تعنيهم باتفاق آراء العقلاء يعادل

إطعامهم لقوام أجسامهم وتغذية الأرواح مفضلة عند الكثيرين على تغذية الأشباح. لو تعلم أولاد الأغنياء أن التعليم العصري المطلوب وربوا على الأخلاق الفاضلة أخلاق العمل والحساب لما خيف على ثروات آبائهم من التبدد ولتوارثوا النسب كما يتوارث النسب كابراً عن كابر فتسلل الوجاهة في بيوتهم الجليل بعد الجليل والعصر بعد العصر فلا يخافون عيلة ولا يشكون سقوط منزلة. وأصدق مثال يصح الاستشهاد به أكل حين ما يراه كل إنسان من الفروق في حالة المسيحيين والمسلمين وهم أبناء وطن واحد لا يختلفون في طبيعتهم ولا في عاداتهم وهم قد فاقوا المسلمين بمبادئ يعنونها من اللغات والعنوم وطاب العيش فقيرهم منهم أكثر من عيش الغني في المسلمين وذلك بفضل ما

تعنوه من حسن التربية والحساب للمستقبل وعدم الاتكال على الحكومة وأعمالها بل على الكفاءة واستخراج الثروة من المذاهب الطبيعية في المعاش.
وعقد ابن خلدون عقداً في نهاية الفصل في أن نهاية الحسب في العقد الواحد أربعة آباء فقال:

إن باني الجدد عالم في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه بعده مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلا أنه مقصر في ذلك تقصر السامع بالشيء عن المعاني له ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتضاء والتخيد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن الاجتهاد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقهم جهنة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحقرها وتوهم أن ذلك البيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أن النسب فقط فيربأ عن نفسه عن أهل عصيته ويرى الفضل له عندهم وثوقاً بما ربي فيه من استياعهم وجهلاً بما أوجب ذلك الاستياع من الخلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامعهم وقنومهم فيحقرهم بذلك فيغضون عليه ويحقرونه ويلقبون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعهم في غير ذلك العقب للإذعان لعصيتهم بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتسوء فروع هذا وتدوي فرع الأول وينهدم بناء بيته هذا في المنوك وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل الصية أجمع ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز.

واشترط الأربعة في الإحساب إنما هو في الغالب وإلا فقد يدثر البيت من دون الأربعة ويتلاشى وينهدم أمرها وقد يتصل أمرها إلى الخامس والسادس إلا أنه في المخطاط وذهاب واعتبار الأربعة من قبل الأجيال الأربعة بأنه مباشر له ومقنن وهادى وهو أقل ما يمكن وقد اعتبرت الأربعة في نهاية الحب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم إنما كريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم إشارة إلى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه أن الله طائق غير غيور مطالب بذنوب الأبناء للبنين على الثواب وعلى الروابع وهذا يدل على أن الأربعة إلا عقاب غاية في الأنساب والحب أمـ

وبعد فإن من سنن الكون أن لا يظل الغني غنياً ولا الفقير فقيراً وأن من رأيناهم اغتروا في العهد الأخير بالنسبة لجموع ثروة الأمم هم الذين سعوا إلى الرزق من أبوابهم ومعظمهم يؤثرون حتى بعد أن اغتروا أن يعيشوا عيش البساطة فدخل أحدهم فأنض كثيراً عن خرجه ولا يبعد أن يجيء يوم يتولى أولئك الذين لا نعرفهم أو لا نريد أن نعرفهم أزمة الأمور ويصبحون هم أعيان البلاد خصوصاً إذا داووا أرواحهم وأرواح ذراريهم بتر ياق التعليم وبسلم التربية الحديثة وطبعوا أسراهم بطابع الاستقلال لا بطابع الاتكال في الأعمال. ربوهم ليكونوا أعضاء عاملة في المجتمع البشري لا ليكونوا فقط آمريين ومأمورين. ربوهم ليعرفوا المال وطرق كسبه من الوجوه المشروعة المعقولة لا بالاحتيال والنصب خبث الطعنة وسوء القالة. ربوهم كما يربي الإنكليزي ولده فيعلمه حتى إذا بلغ أشده يلقه برضاه في معترك الحياة مانعاً عنه كل معونة مالية لا كما يربي الفرنسي

ولده فيعلمه ما أراد فإذا شب لا ينفك عنه فيزوجه ويعطيه ورعاً حرم بناته حتى يخلف قدراً أكثر لبيه.

التعليم الوطني

من أهم المسائل الاجتماعية في العالم مسألة التعليم فهو الذي تحرص عليه الأمم حرصها على حياتها. والتعليم الوطني هو أرقى أنواع التعليم به تحفظ الجنسيات واللغات ويبقى على العادات والقوميات ولذلك تجد العراق في هذا الشأن على أشد ما يكون بين الأمم الغالبة والأمم المغنوبة فالبولونيون لا يشترون من الألمان والنسويين والروسيين إلا لأن كلاً من ألمانيا والنمسا وروسيا تحاول أن تصبغ البولونيين بصيغتها. والجزائريون لا يتأفون من فرنسا إلا لأنها تنوي القضاء على جنسيتهم ولغتهم ودينهم بتلقينهم المبادئ الإفريقية واللغة الفرنسية. والكوريون لا يفضون على اليابانيين إلا لأن هؤلاء يحبون أن يصبغوا أهل كوريا بصيغتهم ويطبعوهم على مناحيهم. وأهل الإلزاس واللورين لا يكون من الألمان إلا لأهم يرمون إلى تربيتهم على الأسلوب الألماني وتلقينهم اللسان الألماني ليسوا مع الزمن لساقم وقوميتهم كما نسي أهل شنزويك هولستان الدانيمركيون لغتهم بانضمامهم إلى بروسيا. والجاويون لا يتأوهون من هولاندة إلا لسيها في تنشئتهم على مناحيها. والهنديون أعظم ما يسقونهم على الإنكليز تلقين الناس حب إنكثرا وعظمتها ولغتها وإن كان الإنكليز أكثر الأمم مراعاة لعواطف المغنوبين على أمرهم.

وهكذا لو استقرينا تاريخ الإنسان إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم نجد عبارة عن سلسلة ظلمات منشؤها سوء الظاهر بين الناس يريد القوي أن يسخر الضعيف ويطبعه على منازعه لا اعتقاده بأنه أعنى منه كعباً وأكثر عنماً وأدباً وأرجح عقلاً وأنجح معيلاً شأن